سميولوجيا الشخصيات السردية
قراءة في رواية " صوت الكهف" لـ : عبد الملك مرتاض"

The characters in the novel – swto al kahf- of – Abd al-Malik Murtād semiotics approach

الدكتور: ميسوم عبد القادر
جامعة الشلف

الملخص

من المؤكد أن مقاربة النصوص السردية قد قطعت شوطا كبيرا مع المناهج الحديثة بمشاربها المختلفة في إرساء قوانينها ونسق مسارها العلمي والمنهجي، وجهازها المصطلحاتي، وشبكاتها القرائية وجهازها الدلالي، لغاية ضمان الحد الأدنى من " الموضوعية والعلمية في التعامل مع النص السردي والكشف عن مقومات بنيته حسب قواعد الفن، والمنهج السيميائي أحد أبرز هذه المناهج التي أثير حولها الجدال. وتهدف مساهمتنا في هذه الدراسة التطبيقية إلى دراسة سميولوجيا الشخصيات السردية في رواية " صوت الكهف لعبد الملك مرتاض" .

الكلمات المفتاحية:
المنهج السيميائي، العامل، النص السردي.

Abstract :
I think we all agree that contemporary Arab critics of narrative discourse differ from one approach to another for several reasons; maybe the perception of critical theories, or background knowledge base for each reviewer. The semiotic approach is one of the most prominent controversial approaches, thereby ensuring the minimum "objectivity and scientific in dealing with narrative text, and the detection of structure in accordance with the rules of the art elements. Therefore the purpose of this paper is to clarify the

Actants according to the semiotics approach in the novel – *swto al kahf-* of – Abd al-Malik Murtāḍ

Key words:
semiotics approach, Actant, Discourse Narrative,

تصدير:

لن نكون مبالغين إذا قلنا إن أهم مشكلة تطرح نفسها بإلحاح في التعامل مع النصوص الأدبية في مجال الدراسات النقدية الحديثة والمعاصرة، هي كيف نتعامل مع النصوص الابداعية السردية لفك شفراتها، واستراتيجيات حبكتها الفنية، وهل تكفي الأدوات والاجراءات المنهجية السياقية والنسقية في فعل القراءة؟ فالأزمة اليوم مطروحة بحدة وبإلحاح بالنسبة للدراسات والبحوث الأكاديمية بالخصوص، وكذلك على مستوى البرامج التعليمة في كافة أطوارها، أسئلة تطرح على دارس الأدب وهي: كيف تتم قراءة النصوص السردية؟ وما هي الوسائل الكفيلة بتحليلها فنيا؟ وهل نستطيع القول أن هذا التشبع في المناهج النقدية هو أزمة النقد الحالية؟ أم أن القراءة الفنية والجمالية تفرض علينا في كل مرة تطوير آليات جديدة، ولعل موجة النقد الثقافي والدراسات الثقافية أكبر دليل على هذا.

لاشك أن المناهج النقدية اليوم هي في وضع متأزم تحاول إثبات جدارتها وتفوقها وتخلق مجالا للتنافس بينها وبين القراءات من السياق إلى النسق، فالمنهج السيميائي الذي نحن بصدد تطبيقه على رواية " صوت الكهف" لعبد الملك مرتاض أحد المناهج التي أحدثت ضجة كبيرة في الساحة النقدية من النظرية إلى التطبيق.

ماهية " الشخصية" في التحليل السيمائي:

من باب الحرص على تقريب المنهج السيميائي إلى الدارسين والمتخصصين ومده بنفس جديد وإخراجه من فوضى المفاهيم والاستعمالات، سيبادر الباحث: رشيد بن مالك في معجمه" قاموس مصطلحات

التحليل السيميائي للنصوص"[1] إلى استكناه شتى المفاهيم والتصورات التي التصقت بهذا المنهج عند " غريماس" ويستكمل تمحيصه في توضيح سؤال الممارسة السيميائية، وسيتيح لنا هذا القاموس فرصة شائقة ونحن نمعن النظر في ضروب المصطلحات المترجمة التي أثارت ضجة في مجال الدراسات السيميائية في اتجاه العمق والتدقيق.

ولا نريد أن نسترسل هنا في تحديد كل الإسهامات التي ذكرها الباحث في معجمه، إنما سيكون تركيزنا على ما طرحه من مفاهيم ومصطلحات تصل من قريب بموضوع " الشخصيات السردية والتحليل السيميائي"، لأننا أردنا أن نسوقها كمدخل في متن المدونة، كونها أحد أبرز المكونات التي كثر حولها الجدال خصوصا مع المنهج السيميائي، فالتصور النظري الذي اقترحه السيميائيون بخصوص " قراءة ومقاربة هذا المصطلح السردي يشكل قطيعة معرفية مع النظريات السياقية التي هيمنت على الدراسات التحليلية وأصبحت تنعت بالتقليدية"[2] وحتى نتمكن من إبراز معالم هذه القطيعة يتحتم علينا استعراض تصورات باحثين اثنين يعود لهما الفضل في بلورة السيميائيات السردية وهما على النحو الآتي: فلادمير بروب V.Propp، غريماس.A,J Greimas.

نظرية "الوظائف " عند فلاديمير بروب

لقد سلك – فلاديمير بروب– في سبيل الالمام بالوظائف الحكائية، طريقة الجمع في كتابه" Morphologie du conte" وأستحدث مفهوما جديدا لمقاربة عنصر الحكاية مستثمرا هنا مقولات الشكلانيين الروس، وإن أبرز ما خلص إليه هو: عنايته بالوظائف المستخلصة وحصرها في " إحدى وثلاثين وظيفة" يمكن تقسيمها على عدة مجالات ، ومن بين هذه الوظائف جاءت فكرة استنباط مفهوم الشخصية، من قبيل أن الثابت في كل الحكايات التي خضعت للتحليل هي الوظائف وليس الشخصيات في حد ذاتها بوجودها المادي. ومن هنا جاء مصطلح " الوظيفة الذي يعني " الفعل الذي تقوم به الشخصية والمحدد من حيث دلالته في تطور الحبكة"[3]. إن هذا التصور الجديد سيفتح أفاقا واسعة أمام مجال السيميائيات السردية التي أسست على إثرها مدرسة كاملة تدعى" مدرسة باريس السيميائية" ويعد غريماس أحد أعلامها.

نظرية "العامل" عند غريماس

تبدأ نظرية " العامل" عند غريماس في مجال السيميائيات السردية، من حيث انتهى " فلاديمير بروب" ولكن بأي معنى يجب أن نفهم كلمة " العامل" عند غريماس من بين المصطلحات اللسانية الأخرى،

وسيكون دليلي في هذا المضمار طبعا قاموس مصطلحات التحليل السيميائي لرشيد بن مالك، فيقول:" العامل هو الذي يقوم بالفعل أو يتلقاه بمعزل عن كل تحديد آخر – تشمل العوامل " الكائنات والأشياء التي تسهم في العملية.... يحل " العامل" في السيميائية الأدبية– محل الشخصية، فهو لا يغطي الكائنات الإنسانية فحسب، بل يغطي أيضا الحيوانات والأشياء والمفاهيم"[4] على أساس هذا التصور بين غريماس المفهوم، في خطوة حاسمة تمر من سير الأحداث إلى الشخصية الروائية، وهوية " العامل" تفهم عن طريق تحويل Transfer عملية صياغة حبكة القصة والشخصية إلى صانع الفعل Actant [5] وهذا ما أبرزه كلود برمونClaude Bremond في كتابه حول " **منطق السرد أو القصة**" ففي نظره أن الدور الذي ينبغي أن يكون مجالا للتحليل هو " ما يسند إلى حامل هو ذات فاعلة– شخص، محمول، سيرورة، وهذا المحمول قد يكون مجرد محتمل أو هو قائم بالفعل أو منجز[6] ومن اللافت أن أية متتالية تشكل جزءا أصليا من القصة تحوي مثل هذا الترابط. وعلى أساس هذا يطرح غريماس سلسلة كاملة من العلاقات عنوانها – من المجرد إلى المحسوس ومن البنية السطحية إلى العميقة–نجملها كالآتي:" التناقض والتضاد والتقابل والاقتضاء؛ وهي علاقات قابلة لأن تجسد على حدود مربع سماه بالمربع السيميائي، ويقصد به "التمثيل البصري للتمفصل المنطقي لمقولة دلالية معينة"[7] بمعنى آخر أن غريماس لا يتكلم عن الشخصية ولكن على صانع الفعل وذلك كي يخضع التمثيل التجسيدي للفاعل لموقعه كعامل لأفعال وحركات تؤثر في المسار السردي وحبكة القصة. ها نحن أمام نموذج جديد عكس ما قال به " بروب".

الوحدات السيمائية في بنية النص

سننطلق في هذا الجانب من البحث إلى تطبيق المنهج السيميائي على رواية" صوت الكهف" كما ذكرنا سابقا، وذلك تبعا للعناصر الأساسية المكونة للخطاب السردي والذي غالبا ما يتكون من عناصر جلية تشمل ثلاث مكونات صغرى تشارك في صياغة الخطاب هي:" الفضائية والمكانية والفواعل، وهي عبارة عن طرق تمكن البناءات السردية من تنزيلها في إطار زمكاني وتمكن الفواعل من شحنها شحنا دلاليا"[8] وبديهي أن أي تأويل لنص ما يبدأ بشروعنا في القراءة، إذن هذه الأخيرة تعيد النظر في الجوانب والوحدات التي تشاكلت حتى كونت هذا النص الذي بين أيدينا، ويبدو جليا " أننا نكشف نصا ما جملة جملة ولكننا في الواقع، نتأول معنى هذه الجمل سعيا لإمكانية فهم إجمالي للنص"[9].

وسنوضح في هذه القراءة الوحدات الصغرى أو العلامات حتى نصل إلى البنية الكلية التي تشكل الرواية، والتي بذاتها تحيلنا إلى بنية عميقة طفحت على السطح لتعكس ذاكرة التاريخ وماضي شعب عانى ولا يزال ويلات الاستدمار الفرنسي، في نظرنا تمثل رواية عبد الملك مرتاض صوت الشعب الجزائري، فألفيناه يوظف الكثير من الرموز والدلالات والعلامات في برنامج سردي يجمع بين الحقيقة والتاريخ والأسطورة وعلم العلامات.

سيميائية العنوان: الصوت/ الكهف

قد يحيل هذا العنوان إلى تأويلات مختلفة، إذ نلاحظ ازدواجية تكوينية أي بنية التركيب الصوت + الكهف وتفسر بالصدى ورجع الصدى، كأننا نلمس مطابقة بين العنوان والمتن، وقد نفسرها على أن هذه الرواية هي صدى لمشاعر وأحاسيس الروائي، ذلك أن الدراسات النقدية اعتبرت العنوان هو بمثابة العتبة النصية " كنوع من التكسير لأفق التوقع، وكنوع من المراوغة والغواية والمفارقة، كما درس العنوان كلافتة وكقناع"[10] أو كثافة نصية مختزلة.

من خلال هذا العنوان المركب، نستشف فكرتين اثنتين لهما علاقة وطيدة بمضمون الرواية وهما لفظ – صوت–جاء كعلامة في بنية النص تحيل على سياقات عديدة ومصادر متنوعة ترمز تارة إلى الكهف، حسب العنوان، وتارة إلى الذات الممزقة التي تعاني غطرسة المستعمر الفرنسي، يقول الراوي:" وأنت أيها الصوت الغريب... من أين مصدرك، لا تبرح تجلجل في الفضاء"[11] مصدر هذا الصوت الغريب مجهول كما أنه غير محدد فهو منتشر في الفضاء، هنا الراوي يعطي الصفة الشمولية واللاتحديد لهذا الصوت الذي بذاته يحيل على " الذات" كشخصية هلامية فعلها في النص هو إصدار الأصوات على شكل هواتف، إنه صوت مزعج يشي بالقوة وبالتسلط والقمع بل هو صوت " المستعمر" لأنه جلب معه البارود والمدافع ما يعينه على سلب الحرية وكل ممتلكات الشعب الجزائري يقول الراوي:" وأبوك ... أبوك الذي استبد به الصوت... وصوت أبيك الجهير الذي خنقته الأمواج المظلمة" إن هذا الصوت يحيل على " **بيبيكو... جاكلين**... وهما يمثلان المستعمر الفرنسي تخييليا بكامل حضوره الواقعي والرمزي، فهي أصوات تنذر بقدوم الفناء والموت.

هناك نوعان من الأصوات صوت " الأنا" أو الذات الجزائرية، وصوت " الآخر/ الفرنسي، الذي جاء من وراء البحار بالسلاح لكبح الأصوات المنادية بالتحرر، أما مفردة **الكهف** فإنها تختفي وتظهر بصورة فجائية في متن الرواية" ربما مغارة زندل كهفه"[12] وهنا الكهف جاء ليجسد المكان بأبعاد مختلفة تتوقف على أهداف البطل / الشخصية الرئيسة التي اتخذت من الكهف ملجأها الوحيد للاختباء والتخطيط لمواجهة – الفرنسي/ المستعمر، يوقل الراوي:" بيبيكو جلبوه من وراء البحر ليستغل الأرض، ليقمعكم بعد الاستيلاء على السهول الممتدة والخصبة، القمع والتجويع يا زينب"[13]. وعليه فبيبيكو يمثل فعل–القمع والقهر–أما كلمة – الكهف–تسمو بوجودها من مجرد مكان عادي إلى مكان أسطوري في النص.

سيميائية الشخصيات

إن رواية " صوت الكهف" استطاعت أن تشد انتباهنا لأن كاتبها وفق في " توظيف تقنيات الرواية الجديدة"[14] فالتحليل وفق المنهج السيميائي يركز على عملية الحركة وسير الأحداث، وعمل الشخصية–الفواعل– بين ذلك الذي يفعل، وذلك الذي يتلقى. فكيف تكون ترسيمة الشخصيات وفق النموذج العاملي عند غريماس؟

بنية العوامل : زينب/ الطاهر... بيبكو / جاكلين

إن نحن قابلنا خطي التحليل اللذين ذكرناهما سابقا، فإننا سنرى سيمياء لصانع الفعل، وسيمياء مسارات سردية، وقد دعمت كل واحدة منهما الأخرى، حتى إن المسارات السردية تظهر كمسار للشخصية، التي حضرت في النص" لتطرح قضية، لقد قدمها المؤلف في صيغة ثنائية زينب/ الطاهر... بيبيكو/ جاكلين وهي شخصيات ليس لها معالم محددة، فلا ماضي لها ولا مستقبل إلا في إطار البنية السردية"[15] لكن في مقابل هذا التركيب الثنائي نجد تمظهرات أخرى لشخصيات تراها تتشكل حسب ما يميله خط الحكي.

.المتأمل لهذه التشكيل سيدرك أن الموضوعات– الأرض/ الوطن/ الهوية/ الحرية/ الاستقلال.... في دورانها تشكل المسار السردي الذي هو الآخر تحركه العوامل–الشخصيات – كما أننا صادفنا في النص عدة أقنعة يتحكم فيها فعل التضحية، بينما البطل المضاد هو بيبيكو والشخصية النسائية جاكلين في مسارهما المعاكس وهو تثبيط كل المحاولات التي تدعو إلى التحرر والاستقلال. فقد أولى مرتاض أهمية بالغة لهذه العناصر من خلال تعرضه للعلاقة التي تجمع بين الذات والآخر ألا وهي علاقة – الصراع– بالإضافة إلى فواعل ثانوية من مثل رابح الجن وابنه و الأقرع وكلهم شكلوا نموذجا سرديا سلبيا يقف في

الصف الآخر من النموذج السردي الايجابي الذي يمثله الطاهر وزينب يقول الراوي:" إنما القائد جاهل، اختاره بيبيكو من أجل هذه الصفة والأقرع مثله، والجن وابنه مثلهما"[16]

النموذج العاملي

يبدو جليا أن الروائي يضفي النزعة الأسطورية على " شخصيات" المدونة ووصفها إلى درجة تكسير أفق الانتظار ودخول عالم المفارقة، وهذا ضمن ما دعت إليه الرواية الجديدة لمشاركة القارئ في إبداع النص، بل يغدو القارئ هو المنتج الثاني للنص، وسنحاول ان نلقي نظرة شاملة لكل المواقف التي تتخذ بين الطرفين، الأول الذي تشكله شخصية – بيبيكو– وهو السيطرة والقهر، ثم الثاني المضاد له هو المقاومة وعدم الاستسلام وتمثله هنا شخصية – الطاهر.

فإذا كنا نتناول النموذج العاملي في هذه الدراسة فإننا نصادف الروائي يوظف الشخصيات الرئيسية في شكل ثنائيات، الطاهر/ عفريت ، زينب/ خرافة فيقول:" انتم مجرد وهم يا أصحاب الربوة. زينب خرافة، أنت بالذات خرافة في خرافة..."[17] ومن خلال هذا يبدو جليا أن الطاهر ارتقى إلى مستوى البطل الأسطوري، أما بيبيكو / وجاكلين فهي مجرد شخصيات حبرية حضرت في النص من خلال الأفعال السلبية، ربما يرجع هذا إلى وعي الكاتب بأحداث الثورة الجزائرية.

لقد جاء حضور شخصية بيبيكو مكثفا داخل النص السردي الذي جاء حافلا برغبات التفجير بالقوة والاعتقاد بحقيقة – الفعل–الذي يضع الرغبة والواقع في كفة واحدة، أي مجابهة المصير المحتوم من أجل طرد المستعمر" وهذا التيه الذي أصابهم بعد أن لفهم الصوت والظلام" [18] هذه صرخة وإشارة واضحة ودلالة جلية تحيل إلى فقدان الذات لكينونتها بعد أن ذاقت طعم القهر والمعاناة والعذاب على يد المستعمر الفرنسي، فجل أبطال الرواية من الجيل الذي شهد قدوم السفينة السوداء، إلا أنهم انقسموا ما بين واقع وأسطورة وما بين خيبة أمل والرغبة في بعث الربوة من جديد، وفي نقطة ساخنة تولدت عن احتكاك بين الحياة والموت عمد الروائي إلى تحويل أهل الربوة من الرضوخ للمستعمر واليأس إلى حركية محسوسة لا نلمسها إلا من خلال فعل القراءة.

مخطط يشرح البرنامج السردي

بيبيكو/ جاكلين–المستعمر الفرنسي–

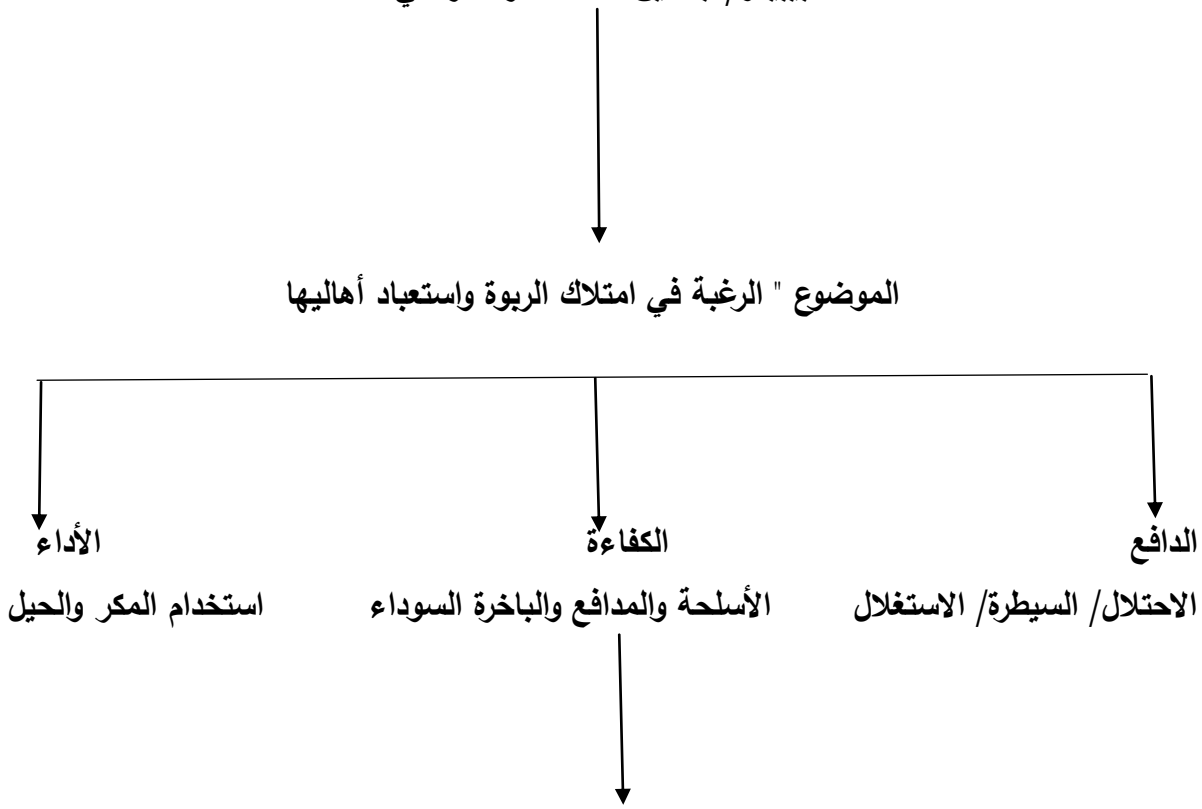

من خلال هذا البرنامج السردي الشمولي عمد الراوي إلى تصوير هوية مغيبة تحت وطأة المستعمر الفرنسي الذي حملته الباخرة السوداء، التي عوضا من أن تحمل المساعدات الغذائية جاءت محملة بالمدافع والبارود، هذا عموما بالإضافة إلى الشخصيات الثانوية منها ما مثل جانب الأسطورة تمثلت في شخصية – العرافة/ حلومة العجوز وذلك بممارساتها التطبيقية الخارجة عن نطاق الحقيقة، ورواياتها للأساطير والخرافات التي كانت سببا في سبات أهل – الربوة– دهرا من الزمن. يقول الراوي:" الأشباح خرافة من خرافات الأم حلومة، عجوز برعت في نسج الحكايات الخرافية لأهل الربوة العالية، صدقوها اتخذوها ولية صالحة"[19] هذا فيه إشارة إلى الدور الذي قام به المستعمر وذلك للسيطرة حتى على عقول أهل الربوة بعد أن سلب منهم أرضهم، وإذكاء الذهنيات المتخلفة بالخرافات والأساطير حتى يستمروا في تصديقهم للمجهول يقول الراوي:" الشيطان كم يهوى إشاعة الحكايات الخرافية" [20].

ويمكننا أن نضيف أيضا شرح شبكة العلاقات السردية التي تؤطر المخطط الموجود أعلاه وفق الجدول الأتي:

الاستعمار الفرنسي وتشكلاته	شبكة العلاقات السردية	أهل الربوة
بيبيكو / المستعمر	≠	الطاهر/ المسجون
جاكلين/ الغيرة	≠	زينب/ المحسودة
رابح الجن/ المغتصب	≠	زوليخة/ المغتصبة
ابن رابح الجن / الخطف	≠	الصبي/ المخطوف
الأقرع / الحركي	≠	الأصالة والمبدأ
القائد مسؤول الربوة/ الخيانة والغدر	≠	الحرية/ الهدف
الذئب / السطو	≠	الكهف/ الملجأ

نلاحظ ختاما من خلال هذا الجدول الذي حاولنا أن نحصي فيه النموذج العاملي للشخصيات، ونلاحظ أن كل شخصية حبرية في النص تقوم بالدور المنوط بها وفق ما هو مبين أعلاه، فالروائي الجزائري عبد الملك مرتاض قسم شبكة العلاقات السردية على مجموعة عوامل ، وهذه الأخيرة أسند إليها مهمة القيام بالدور الذي يقتضيه الموقف السردي والحبكة يقول الراوي:" بيبيكو والذئاب، استولى هو على الأرض وتغير هي على الدجاج والنعاج والافتراس والاستيلاء"[21] هذا مثال بسيط نقلناه في سبيل التوضيح وإن كانت الرواية تعج بالكثير من الإشارات والتلميحات لا يسع المجال هنا لشرحها.

بيبليوغرافيا البحث:

1- رشيد بن مالك، مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص، عربي- إنجليزي- فرنسي، دار الحكمة، الجزائر 2000
2- - هامون، فليب. سميولوجية الشخصيات الروائية، تر: بنكراد، سعيد، دار الكلام، الرباط 1990، ص:8
3 -Paul .Ricoeur, Temps et Recit. Edition Seuil ; Paris, 1980, p : 64-
4-Claude Bremond, Logique du Récit, Edition Seuil ; Paris, 1973, P : 134 -4
5-Greimas(A. J.) et Courtés(Joseph(: Sémiotique: Dictionnaire Raisonné de la Théorie du- langage, Tome 1, Hachette Université, Paris, 1979, p. 29
6 - عبد العزيز بن عرفة، مدخل إلى نظرية السرد عند غريماس، مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت، ع 45/44، 1982، ص: 31

[7]– محمد خير البقاعي، سيميائية القراءة/ مجلة دراسات نقدية، السنة 3 ع 6 ، 1995، ص: 96

[8] – الخطيب بودربالة، قراءة في سيميائية العنوان، الملتقى الوطني 2 ، السيمياء والنص الأدبي، 2002 دارا لهدى، الجزائر، ص: 26

[9] – عبد الملك مرتاض، صوت الكهف، دار الحداثة، بيروت، لبنان، ط 1 1986، ص: 05

10 – محمد تحريشي، أدوات النص، اتحاد الكتاب العرب، دمشق 200 ص: 118

[1]-رشيد بن مالك، مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص، عربي– إنجليزي– فرنسي، دار الحكمة، الجزائر 2000

[2]. - هامون، فليب. سميولوجية الشخصيات الروائية، تر: بنكراد، سعيد، دار الكلام، الرباط 1990، ص:8

[3] – رشيد بن مالك، مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص، مرجع سابق، ص: 78

[4]– المرجع نفسه ص: 16

[5]-Paul .Ricoeur, Temps et Recit. Edition Seuil ; Paris, 1980, p : 64

[6] -Claude Bremond, Logique du Récit, Edition Seuil ; Paris, 1973, P : 134

-Greimas(A. J.) et Courtés(Joseph(: Sémiotique: Dictionnaire Raisonné de la Théorie du langage, Tome 1, Hachette Université, Paris, 1979, p. 29[7]

[8] – عبد العزيز بن عرفة، مدخل إلى نظرية السرد عند غريماس، مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت، ع 45/44، 1982، ص: 31

[9]– محمد خير البقاعي، سيميائية القراءة/ مجلة دراسات نقدية، السنة 3 ع 6 ، 1995، ص: 96

[10]– الخطيب بودربالة، قراءة في سيميائية العنوان، الملتقى الوطني 2 ، السيمياء والنص الأدبي، 2002 دارا لهدى، الجزائر، ص: 26

[11] – عبد الملك مرتاض، صوت الكهف، دار الحداثة، بيروت، لبنان، ط 1 1986، ص: 05

[12]– صوت الكهف ، الرواية، ص: 107

[13]– صوت الكهف ، الرواية، ص: 108

[14] – محمد تحريشي، أدوات النص، اتحاد الكتاب العرب، دمشق 200 ص: 118

[15] – المرجع نفسه ص: 119

[16] – صوت الكهف ، الرواية، ص: 124

[17]– صوت الكهف ، الرواية، ص: 77

[18] – صوت الكهف ، الرواية، ص: 06

[19] – صوت الكهف ، الرواية، ص: 37

[20] – صوت الكهف ، الرواية، ص: 38

[21] – صوت الكهف ، الرواية، ص: 14